من أساطير الاغريق

١ ـ خرافة جاسون

للأستاذ دريني خشبة

غلب بلياس الظالم أخاه إيسون على مُلك تساليا ، فهام الملك على وجهه فى أقصى الأرض ، وهامت معه زوجته الملكة الصالحة آلسيميديه ، وطفلهما الوحيد اليانع جاسون ... وعرجا فى تطوافهم بأستاذ أخيل العظيم شيرون ، فدفعا إليه بالطفل يهذبه ويؤدبه ، ويُنشّئه على الفروسية ومكارم الأخلاق ؛ ورجَواه أن يكتم سرهما عنه حتى يشب ويترعرع ، ويبلغ أشده ، فيثير فى صدره الحمية ، ويرسله ليثأر لأبويه ، وليستخلص العرش من غاصبه . وأخلص شيرون فى تربية جاسون الاخلاص كله ، وكان يردفه خلفه ليعلمه الرماية ، وهو شرف عظيم لم ينله من تلاميذه غير أخيل الخالد ، وغير جاسون ... ثم مرت الأيام ، وشب الفتى على غرار أستاذه ، فلم يكن فى الدنيا بأسرها أحمل منه لسيف ، ولا أرمى لسهم ، ولا أرجح فى تفكير ، ولا أوفر فى حظ من جمال وكمال . ووقفه شيرون على سر أبويه ، وما كان من اغتصاب عمه بلياس عرش والده ؛ فثار ثائر الغلام ، وازلزل قلبه ، وضرب برجله يود لو يخرق الأرض فيكون عند الظالم ، فيذرو عظامه فى الريح !

ووعظه شيرون ، وأوصاه بالصبر وطول الأناة وإعمال الروية وحذره أن يعيث فسادا فى الأرض ، ونصحه أن يكون رحيما بالضعفاء ، وألا يألو جهداً فى مساعدة من يطلب منه المساعدة ، وألا يكون عداؤه لعمه سبباً فى عدائه لجميع الناس ... وأعطاه الفتى موثقه ، ثم اخترط سيفه ، وربط على قدميه وساقيه نعليه الذهبيتين ، وودع أستاذه وحياه أحسن تحية ، وانطلق يذرع الرحب إلى يولكوس ، حاضرة تساليا .

ولقى فى طريقه سيلا زاخر العباب ، فوقف حياله ينظر ويفكر ، ويدبر لنفسه خطة يعبره بها . وكان السيل جياشاً ينحدر من شعاف الجبل القريب ، فيجرف فى سبيله الجلاميد والنُّؤى ، وتظل تتدحرج ويضرب بعضها بعضاً فتنسحق وتتفتت ، فراعه أن يتزلق وسطها ، ويكون مصيره مصير جلود منها ... وفيما هو يعمل فكره ، وفيما هو يتلفت يمنة ويسرة ، إذا به يرى عجوزاً تابّة تدب على عكاز غليظ ، مقبلة نحوه ، مادة ذراعها المعروقة مستغيثة لهفى : « بُنى ! بُنى ! انتظر أرجوك ! انتظر يا ولدي ! ! » من هذه ؟ لا يدرى جاسون . بيد أنه انتظر حتى أقبلت العجوز وسألها عن شأنها ، فتوسلت إليه أن يحملها على ظهره ليعبر بها مجرى السيل ! ووجم جاسون قليلاً ، لكنه ذكر وصاة شيرون أستاذه ، فتبسم ، وانحنى للمرأة فاحتملها على كاهله القوى المتيد ، ثم رجاها أن تدفع إليه بعكازها يتوكأ عليه ففعلت ، وتقدم بخطى وئيدة ، ولكنها أكيدة ، إلى مجرى السيل لا يفكر فى نؤيه وجلاميده ، ولا جيشانه واصطخابه ، بل يفكر فى أنه يجب أن يؤدي يداً لهذه العجوز التى استغاثت به ... وعبر مجري السيل ، وبلغ عُدْوته الأخرى بعد عناء وجهد ، ووضع على الرمال اللينة المتطامنة حمله ... ولكن ... يا عجبا ! ! أين هى المرأة العجوز الحيزبون ؟ أين الكومة من الجلد المتهافت ، والعظام النخرة ، التى كانت ترهق كاهله ؟ لقد ذهبت ، ووقف مكانها شباب رائع ، وجمال فتان ، وغادة حُسّان مفتان ! !

— يا للآلهة ! من أنت بحق السماء يا ربة ؟

— أنا ؟ ... ألا ترى إلى هذا الطاووس المزهو بذيله وألوانه أيها العبد الصالح ؟

— أوه ؟ ! أو أنت جونو [1] ؟

وسجد جاسون بين يدى الربة ، سيدة الأولمب ، ثم أذنت له أن ينهض ، وأخذت برأسه فباركته ، وسألها أن تهبه رعايتها في حله وترحاله فوعدت ، ثم رفت فى أثير السماء التي تفتحت لها أبوابا ، وغابت عن بصر جاسون !

ووقف الفتى لحظة مسبوهاً مشدوهاً ثم انطلق فى طريقه ... وراعه بعد مرحلة طويلة أن يرى إلى قدميه فلا يجد إلا نعلاً واحدة فى إحداها ... أما الأخرى ، فقد ذكر أن السيل انتزعها من قدمه واحتملها ، وهو لا يستطيع استعادتها ، لأن حمله كان يرهقه !

ثم بلغ يولكوس

ورأى جمعاً حاشداً حول ملكها بلياس ، الذى وقف ينحر الذبائح ، ويقرب القرابين للآلهة ، ويفرق حواياها [2] فى الفقراء ! فدافع الناس ، وشق طريقه إلى الهيكل حيث وقف الملك ، ثم سار إلى عمه قُدُما ، حتى كان قبالة المذبح ... وما كادت عين صاحب العرش — أو غاصبه — تقع على الفتى الذى يلبس نعلاً واحدة حتى شحب لونه ، وغاضت الدماء الوردية من خديه ، وأخذ قلبه يخفق ويضطرب اضطراباً شديداً ... ذلك لأنه ذكر تلك النبوءة التى تنبأ له بها أحد سحرائه ، والتى حذرته من الشاب الذى يقبل من بلاد بعيدة لابساً نعلاً ذهبيةً واحدةً فى إحدى قدميه فى حين يكون هو مشغولاً بتقريب القرابين للآلهة !! إن هذا الشاب يقتله !!

وأمر حراسه بالقبض على الفتى وإحضاره إلى غرفة العرش لجىء به إليها ، ولم ينتظر جاسون حتى يبدأه عمه بالكلام ، بل وقف أمامه جباراً يغلى الدم فى عروقه ، وطلب إليه أن يعتزل الملك ، ويخلع التاج ، ويعطى الصولجان صاحبه ، وأن يعيد الحق إلى نصابه ... « لأنك انتهزت ضعف أبى الذى أوهن منه عظامه ، واشتعل رأسه شيباً . فعتَوْت عليه ، وألبت عليه الأوشاب من مرتزقة الجند ، ورعاع الشحاذين والأفاقين ، فلبست تاجاً ليس لك ، واستويت على عرش تزعزعه الجريمة من تحتك ، ثم حاولت أن ترشو الآلهة وتخدع السماء بالأضحيات والقرابين ، ولكنك لا تخدع إلا نفسك فالتمس لها السلامة من موت يمتك ، ومنية وبال يحيط بك ... »

وكان بلياس يسمع هذه الكلمات الثائرة كأنها سهام تملأ أذنيه ، ومنايا تطير حول قلبه ... بيدأنه استعد لها بالمكر ، وتهيأ لصيدها بالخدعة ، فتبسم لابن أخيه وقال : « ماذا تقول ياجاسون؟ أتحسبنى يابنى قد سلبت أباك عرشه ، وغلبته على صولجانه ؟ ؟ كلا والله يا بُنىّ كلا ... ولكن ... ليسكن طائرك قبل كل شىء ... فلقد دعوت نفراً من (رعاياك !) لوليمة إلهية ، وقد أقبلوا من كل فج ، وهم ينتظروننا الآن ، وليس من حسن الرعاية ولا من مروءة الملوك أن يستأنوا عن مواعيدهم ، فهلم تلقهم يا جاسون ، وترحب بهم ، فاذا فرغنا وفرغوا من طعامهم ، عدنا سوية لنبحث هـذا الأمر الذى أهمك وأقلقك ، وملأ فؤادك بالوساوس والأراجيف ؛ وسترى أن الذى أنباك هذا النبأ زخرفه عليك ، وشوه حقيقته فى نفسك ، بدليل هذه النيران التى تنقذف كلمات من فمك !! تعال ... مرحباً بابن أخى جاسون ! لشد ما أنا مشتاق إليك يا حبيبى ! »

ثم قبله فى جبينه قبلة صفراء قاتلة ، أفتك من قبل التماسيح ؛ وانطلقا إلى البهو الكبير ، حيث صُفّت الأخاوين [1] الحافلة بأشهى الآكال وأطيب الأشربات ، وحيث جلس المدعوون إليها صفوفاً صفوفاً وألوفاً وألوفاً ...

وجلس جاسون فأكل وشرب ، ثم أخذت الموسيقى تعزف فتشرح الصدور الحرجة ، وتشفى النفوس من كل حرد ؛ واعتلى المنصة التى أقيمت فى صدر الحفل جماعة من المنشدين ورواة القصص ، شرعوا يسردون قصصهم ، ويتناشدون أشعارهم ، ويروون من أنباء الأبطال ما يأسر القلوب ويسحر الألباب ، حتى أن جاسون نفسه كان يصغى إليهم وكأنه يتلقى وحياً من السماء يتنزل على قلبه ، ويدعوه إلى فعال الفتية الأبطال

قال أحد المنشدين : « واسمعوا أيها الناس حكاية الملك الذى صبا قلبه إلى امرأة غلبت فؤاده وسحرته بجمالها عن زوجته وأم طفليه ، فبنى عليها [2] ، ولم يبال أن ينقض ركن الأسرة وينهار

(١) عودنا القراء فى أساطيرنا السابقة أن نسميها باسمها اليونانى (حيرا) وهذا هو اسمها اللاتينى

(٢) حناياها

(١) إخوان لغة فى خوان الذى جمعه خون وفى القلة أخونة

(٢) تزوجها

عمادها ... ذلك هو أتماس أحد ملوك تساليا فى الزمان القديم . ولقد فزعت الملكة البائسة وخشيت أن يصيب طفلها مكر ضرتها فاعتزمت أن ترسلهما إلى ملك كورنثيس ليكونا بنجوة من إبنو الخبيثة ... وفيما هى واجمة تفكر فى ذلك إذا هرمز الأمين ينزل من السماء فيسألها وتجيبه :

— نيفيل أيتها العزيزة ؟ فيم تفكرين حزينة هكذا ؟

— هرمز ؟ تباركت يا رسول السماء ! أفكر فى ولدى هذين وما عسى أن يصيبهما من مكر إينو ...

— لاعليك ياحبيبة الآلهة ، إننى مساعدك ، كفكفى دموعك !

— شكراً يا إلهه الرحمة ، سأسبح لك ما حييت !

— وأين تحسبينهما يكونان فى سلام وأمن يانيفيل ؟

— لا يكون ذلك إلا عند ملك كورنثيس ، ولا أدري كيف أرسلهما إليه ؟!

— لا أهون من هذا ، فانتظرى طرفة عين !

ومضى الإلهه فغاب برهة ، ثم رجع ومعه كبش عظيم ذو فروة ذهبية وقرنين وحوافر من خالص الإبريز ، فقدمه إلى الملكة المحزونة ليركبه طفلاها ، ولينقلهما إلى ملك كورنثيس ؛ وسجدت الملكة شكراً لهرمز ، ثم ودعت طفلها فركسوس ، وابنتها هيله ، وطبعت فوق جبينهما وخدودهما ألف ألف قبلة ، ودعت لهما ؛ ثم انطلق الكبش فى الأثير يطويه بين بكائها الطويل وآهاتها التى لا تنتهى ... وطفق الكبش يمرج فى السماء ، ويخطف فوق الممالك ، حتى كان فوق بحر صاخب مضطرب ، تقلبت أمواجه ، وتناوحت زوابعه ، فنظرت الفتاة المسكينة هيله تحتها لترى ما هنالك ، ولكنها فزعت فزعاً شديداً حينما رأت سراطين البحر وحلازينه تقتتل وتحترب ويأكل بعضها بعضاً ، فارتجفت رجفة هائلة ، وانفلت صوف الفروة من قبضتها فسقطت من عل وجعلت تهوى حتى تردّت فى البحر وابتلعتها أمواجه ... ومنذ ذلك الوقت ، وهذا المكان يعرف من أجل ذلك باسم (الهلسينت[1]) نسبة إلى الفتاة البائسة هيله ! ومضى الكبش يستبق الريح ، ويطوى العوالم ، حتى وصل إلى مملكة كورنثيس ، فهبط قليلاً قليلاً ، حتى إذا كان على الأرض نزل الفتى فركسوس فصلى للآلهة ، وذرف الدمع على أخته ، وسلم على الملك الذى هش له وبش ، وأحسن لقياه وأكرم مثواه ، ثم شحذ سكينه وتلّ الكبش لجبينه ، وكبر وسبح باسم جوف ، وبأسماء آلهة السماء وجزر الحيوان قرباناً لهم جميعاً ... وسلخ الجلدة الذهبية وقدمها هدية للملك الذى فرح بها فرحاً شديد ، ولأنها كانت تعدل كل ما فى كنوز الملوك من ذهب ... وقد ربطها الملك فى ستديانة باسقة ، ووكل بها تنيناً هائلاً ليحرسها وليسهر عليها من كل سارق رجيم ... ومنذ ذلك اليوم والفروة التى تعدل ألف كنز معلقة لا تمتد إليها يد ، ولا يجسر أحد أن يقترب منها وإلا جازف بنفسه فأصبح لقمة سائغة للتنين ... »

ولحظ بلياس كيف زاغت عينا جاسون عندما سكت المنشد ، فانتهز الفرصة ، وانطلق يغريه بالاستيلاء على الفروة الذهبية ، ليكون بها أعز الملوك وأضخمهم غنى ، وأوفرهم ثراء ؛ ثم ليخلد اسمه بين أسماء الأبطال الذين دوخوا الممالك ، وأتوا من الفعال ماجعلهم أنشودة المجد فى فم الزمان ... « ولم لا يابن أخى ؟ لقد علمت ان أستاذك الذى نشأك ، وهذبك وأدبك ، هو شيرون السنتور الأكبر ، أستاذ أخيل العظيم ؛ وقد خلد أخيل اسمه على أسوار طروادة ، وأعلى ذكره فى جميع الأنام ، فلم لا تذهب إلى كورنثيس لتحصل على الفروة الذهبية إما سلماً وإما حرباً ، وأنت من أنت فى أبطال الوغى ، وصناديد الحروب ؟ ألست أرمى الناس لسهم ، وأضربهم بسيف ، وأحذقهم طعاناً برماح ؟ إنها فرصة المجد لن يبتنى المجد يا جاسون ، فلا تضعها ! لاتقل « بل حسبي أن أحكم الناس » فالناس يعشقون أشجع الناس ... » وهكذا طفق بلياس المخادع يزخرف للفتى ، حتى هاج فى صدره الشاب نائم المنى وأبعد الآمال ... فرضي جاسون بالاضطلاع بهذه المجازفة ، وظن أنها من اليسر بحيث لا تستعصى على شجاعته . بيد أنه عندما خلا إلى نفسه ، وراح يفكر فى الوسيلة التى يبلغ بها مناه ، بدت له حقائق أسقطت فى يده ، وجعلته يتخاذل ، ويندم على الوعد الذى وعد عمه ؛ غير أنه ذكر ما قال له أستاذه شيرون من ضرورة احترام الوعد ، وربطه بالشرف ، فصمم على السفر إلى كورنثيس وجلس يفكر فوق عدوة النهر ، وكانت سمادير اليأس تملأ بظلماتها عينيه ، فلم يهتد إلى الوسيلة ! ! ... وانطلق إلى غرفته

(١) هو الدردنيل